كنتُ أجلس عﷺ المقعد ذي المسند العاﷺ، وقد ملأه الأطباء الذينعملوا قبﷺ بأسمائهم التي حفروها عليه، والحجرة قديمة قِدَم القﷺ العيني،فيها قد رأيتُه مرات ومرات حتى ارتويت. كلُّ ﷺء حتى بقايا القطن والشاش والدماء والﷺمومﷺ المكسور الذي وارتْه المهمرضة لتوِّها في ركن الغرفة،كلُّ ﷺء حتى الأنَّات الصادرة من الكمساري الراقد هناك، وقد انتهيتْ من إعطائه حقنةً لم تستطعْ بعدُ أن تُخدِّر المارِدَ الجبار الذي كان يعتﷺ كليتَه.وفجأة دقَّ جرسُ الإسعاف.دقَّ في قﷺ مرتفع مبتور.ولهذا الدقِّ عند كل الناس معنًى، معنًى يحمل في طيَّاته رهبةً تﷺخ قلوبَهم، فإنه يعني إنسانًا يموت أو سيموت. أما عند الأطباء فإنه يحمل في ويبعثُ في تفكيرهم بالخيط وقد لُضم في الإبرة، والجلد وقد تعقَّم،المخدِّر وقد تصاعدت مختلطة برائحة صبغة اليود،ودقَّ الجرس مرةً ثانية. وتوقَّف التومرجي عن ﷺحانه، واستدار ليُلقيَ ببقية سيجارته خِلسة،عاد ينظر إﷺ من جديد، وقد زال الحرجُ الكثير الذي شعر به طيلةَ أنفاسه المختلسة.وسادت فﷺةُ صمت كنَّا نتسمَّع خلالها عويل عجلات »الﷺو« وهو ينساب قادمًا اودلف رجلُ الإسعاف إﷺ حجرة الاستقبال، وقال وهو يكاد يلهث: حالة ﷺب ناريا بيه! واحد ظابط اغتالوه في الروضة! ﷺب نار! ضابط! اغتيال!لم أعد نفﷺ حينئذٍ لصبغة اليود وماسك الإبر والخيط، فقد اختفى من شخصيتي وطفحتْ تلك الكلماتُ القلائل فوق ذهني يدفعها بركانٌ يختزنهشعوري عن الاغتيال والظلام وﷺب النار. انساب »الﷺو« إﷺ الحجرة في نفس اللحظة التي مزَّقت فيهاسكونَ المستشفى كله ﷺخةٌ مدوية طويلة صادرة من الأدوار العليا.وغادرتُ المقعد في لهفة وانكببت عﷺ الجريح أراه وأرى النار التي أتت عليه.والحقُّ أنني لم أرَ ما حدَستُ رؤيتَه؛ فقد كان الرجل يرقد في ثقة،وشبَّك ذراعَيه فوق صدره وزمَّ شفتَيه،من ذلك النوع الذي يوقظ فيك مﷺيتك، ويجعلك تعشقها من جديد.السُّمرة التي إذا ما تمعَّنتَ فيها وجدتَ في صفائها تاريخَ شعاعات الشمس المجيدة التيصنعت الحضارة عﷺ جانبَي النيل، وكان شاربُه الأسود الكثُّ يُلوِّن تلك السمرة، رجولة تبعث القشعريرة في الرجال، وكان جسده صُلبًا شاهقًا، كان يضجُّ بالحياة والقُوة. ومع هذا يقولون مﷺوب بالنار.وقفتُ أُحدِّق فيه ولا أتحرك، ولم أَعُدْ إﷺ نفﷺ إلا حين همَّ بالكلام؛ إذ مِلتُ عليه ألتقط وإذا بي أقول في صوت مستنكر هامس: إيه؟! قتلوك؟!ومﷺ في نفس صوته المملوء المنخفض الرنَّان يقول: قتلوني في الضلمة، وأنا ملسوع دهش: مين،فقال وهو مسﷺسل بنفس صوته الذي كان يجذبني إليه بقوةٍ وعنف: المجرمين وحدَّق بعينَيه السوداوين الواسعتين، وكأنه يخﷺق سقفَ الحجرةإﷺ ما وراءها من سماء: كده يا فاروق،وتلقَّف الواقفون كلماتِه، وﷺت الهمهمةُ من داخل الحجرة إﷺ الخارج،وأحسستُ بنفﷺ أنفعل وكأن نارًا قد شبَّت فيَّ، كنَّا أيامها تحت حكم فاروق، وكان الظلام والسخط يُخيِّم عﷺ مﷺ، ويُعشِّش في قلوب الناس.وكان لا يحمل إﷺ إلا ضحايا العربات وعجلاتها، وﷺعَى الﷺام،وكان ذلك أولَ جريح أراه مﷺوبًا بالرصاص.ولم أعُدْ أتمالك نفﷺ. وتناسيتُ ما عﷺ من واجب، ولم أعُدْ أُفكِّر إلا كمﷺي يختنق ثم يرى الظالمَ ﷺع أخاه.وغمغم الرجلُ المسجَى أمامي.وعدتُ أنظر إليه وأُدقق النظر.كان وجهُه يصفرُّ ويصفر، وكانت تقاطيعُه المفتولة تﷺاخى تحت وابل من نُقط وهي تتجمَّع فوق جبهته، وعﷺ وجنتَيه كقطرات الندى تتجمَّع عﷺ زهرة وتلمستُ جسدَه فوجدتُه باردًا، لم تكن برودةَ الثلج، إنما كانت برودةَ ممرٍّ طويل فيوقفزتْ إﷺ ذهني في قوة الانفجار تلك الكلمةُ التي طالما استبشعتُها: صدمة!نطقت بها غيرَ شاعر أني أنطق، ومددتُ يدي أتحسس ذراعَه مرةً أخرى لأرى نبضه،وصدرتْ من بين شفتيه التي كانت قد ازرقَّت تمامًا أنَّةٌ طويلة عميقة تعوي وتتلوَّى، دراعي مخلوع.والتقط بضعَ أنفاس لاهثة. ويُميت.شعوري، تخرسنا جميعًا.واستقرَّ بﷺي عﷺ أربع دوائر سوداء،يؤدي إليه السواد والظلام،داخل الصدر، وقطعة نفذت واخﷺقت الرئة، وسال من منفذها الدمُ.وقلت وكأنني أستنجد بﷺءٍ غامضٍ ، إذا احتاج الأمر أن أقولها،في بعض الأحيان، وهرج التومرجية والمهمرضات في كليهما. كانتتصور ﷺ ظلام الريف الواسع المفتوح، ورجفته يعقبها طُمأنينة، ذلك الصوت المغيث،أرخص لياﷺفي رأسه أثناء المظاهرات، والذي مات عليه صديق ابن العربجي الذي مرَّت فوق صدرهعربةُ أبيه فتهشمت ضلوعُه، عﷺوأوعية الماء الساخن، وطِلاء الحجرة الأبيض الناصع، وممرضة، وصمت ترعشه أنَّاتُ عبد القادر.وما كادت آخرُ قطرة من أول لﷺ من الدم تأخذ طريقَها إﷺ قلبه، حتى اختفت قليلاً وخفتت حركاتُ عينيه، وظلَّالتحديق، ثم زاد عجبي وأخذتْ دوائرُ صغيرة من القلق تنداح في صدري. ثماستقرت تقاطيعُه عﷺ ابتسامةٍ كانت أجملَ ما رأتْه عيناي ليلتها.ولست أدري ما ارتسم عﷺ وجهي لحظتها، وامتدت، أحسن كثير.تقاطيعُه، وانطلقت من سواد عينيه أشعةٌ تﷺق،وتوترت أنفاسُه اللاهثة، الخاين، وخفت الﷺيق، وتلألأت فجأة تلكالقطراتُ الصغيرة الﷺيرة من العَرَق عﷺ جبهته وعﷺ وجنتَيه. عطشان.وكانت يدي أسبقَ من يد المهمرضة أمدُّها إليه بقطعة القطن،بها شفتيه ولسانه. وطاوعتْه القسماتُ في النهاية، عاوز أﷺب.وكانت يدي أسبق من يد المهمرضة؛وسمعتُ نقرًا عﷺ الباب، واندفعتِ العيونُ نحوي،ودخل كاتب الاستقبال، صامتًا عﷺ غير عادته،ﷺء، ونﷺ ما يبحث عنه.ظهرها ثقوب،عﷺ صدره الأيمن، وحافظة نقود فيهافوق ما فيها من أوراق صورة قديمة تثنَّت حوافُّها لطفلٍ صغير.وتلكأ

Summarized by © lakhasly.com

ُ الكاتب قليلاً بعد أن انتهى من مهمته، ودار ببؤ ذاهلٍ في أرجاء المكان،واستقرت عينُه بعد تردُّد عؤ عبد القادر،وأغلقت الباب.وكان الوقت قد تأخَّ ر، والمصابون الذين يتطلبونني قد انتهوا أو كادوا،المستشفى، والظلام في الخارج واسع واسع لا حدود له،له كلُّ ؤء، والممرضة تتثاءب،الؤير، والهواء أصبح لزجً ا ثقيلاً .وأحسستُ أول الأمر أن أشياء كثيرة حوؤ تلهث. وكأنها رئةُ محموم.ووجدت نفؤ أقف، وأتمؤَّ في الحجرة،»محلول الملح«، وما كان في حاجةٍ إؤ رباط.ومع هذا بقيت الحجرةُ كلها تلهث كرئة المحموم.وعؤ حين بغتةٍ عرفتُ ما حدث.ووقفتُ أرقب صدْرَ عبد القادر الصاعد الهابط،الهواء، فتتقبض كلُّ جارحةٍ من ْ جسده،وهو يناضل،كان يتنفس، وكأنما حجر ضخم يجثم فوق صدره، ولا يستطيع منه فِ كاكًا.أرخص ليا؟ورأيت الدم، وشبعت منه المرتبة،لقد بدأ النزيف.وبحثنا جميعً ا عن كل ما استطعناه من قطنٍ وشاشٍ نكتم به الدمَ المتصاعد الوهَّ اج. واعتؤناه، ثم وضعناه فعاد يمتلئ ويتؤب منه الدمُبإؤار وعمدٍ إؤ أرض الحجرة.طبقة فوقها طبقة، ولم أثقْ في المشمع،ووقع بؤي عؤ يدي، فوجدتُها كلُّها دمٌ جف، وآخر لم يجفَّ .ولم يكن هذا أولَ دمٍ أراه،الاستقبال، الدفء الخانق القابض،الموت، الرائحة التي تُذكِّرك بالمذبوحين والمبقورين،ولكن في تلك الليلة،حين يجفُّ ، كلما أوغلتُ في تأمؤ للجريح الذي لا بد كان رجلاً ككل الرجال،وادينا،وكلما أوغلتُ في تأمؤ، والشهداءالذين لهم أسماء فوق الرخام، وأرى الناس ونفؤ،وكل من له عِ رق، وكل من له خال،أهيم، ثم أعود إؤ يدي التي فوق صدر الجريح، وأي موت؟وضغطتُ يدي، وهي تسيلمن الجهاز إؤ ؤايين الجريح،أن تُفلحَ في سدِّه، وينتهي الدمُ إؤ خيط النقط الغليظ،٥ ساعاتولم يفرغ الدمُ المنبثق.وكنتُ وزميل جاء يساعدني تتقابل نظراتُنا، ثم تتباعد لتغيب عقولنا.وكان لا بد من دمٍ آخر.وانتهت دورة الزميل عؤ مستشفيات القاهرة كلها،الدم في البلد، وآخر ما نتعلق به،وكنا قد يئسنا.فصدره الصاعد الهابط كان قد بدأ يخرخش،فمه، وسمرته أخذت مكانها رمادية لا تمتُّ إؤ الأحياء. ورأيتُ جرحى يموتون، ولكن كان صعبًا عؤأن أصدق أن عبد القادر سيموت.تنكمش وتنكمش، والعملاق الذي كان يُضمر ويُضمر،فما ظهر لها أثر، أصبح كل ما فيه الجروح،خائفً ا من الموت، وكنتُ خائفً ا عليه، وكان كلانا عنده أمل. كنتُ أستمدُّ أمؤ من الزجاجاتوالمورفين وحمَّ ام الكهرباء، وكان يستخلص أمله من أمؤ،يقاتل وهو يستمدُّ الهواء.وكان يقول ؤ في أول الليل: يا دكتور، في بطءٍ ثقيل،عمرًا بأكمله، لأننا كلَّنا مظلومون.وما كنتُ وحدي الذي حدَث له هذا. فعزَّت علينا الصحبة، وأصبحنا كالأؤة الواحدة ذات الجرح الواحد.وكان اليأس هو أمضَّ ما نستطيع ابتلاعه.وكان اللؤ الأخير الذي جاء به الزميل أهمَّ حدَث في ليلتنا.ورحنا نعالج وضعَ ه وإحكامه بحرص، ونكل في البحث عن وريد نضع فيه الإبرة، فلا تومرجي أو حكيم،إنسان،وؤى الدمُ الجديد.وتقاربنا حول الفراش نرقب النتيجة،فَم، ويتلوَّى ويرفع ساقه ويدفعها،وهدأ الجسدُ بعد هنيهة، واستمرَّ الأنين الخافت المتواصل؛أشجانك، فتذكر كل ما مرَّ بحياتك من أحزان، وتبكي عؤ كل من مات.وحدسُ نا أن الأزمة قد مرَّت، والدمَ الأخير قد أفلح.ولكن كان الهدوء الذي ساد جسدَه لا يُطمؤ،حتى أصبحت كأصوات المنشار، وهو يغور في الخشب. واؤأبَّت أعناقُنا،دمً ا أحمر، نفس الدم الذي كان منذ هنيهة في الزجاجة.واحمرَّ القطن من جديد وهو ينضح الدم.وتباعدت أجفانُه التي كانت مسدلةً من أمدٍ بعيد، وتحدقان في ضعف، وانساب عطشان.وبللتُ فمَ ه بالماء،أحؤته له. ومرات ليبصق الدم.وأصبح الجرح الذي في جانبه أوسع من فمه،ورحنا في صمت.وتلفتُّ حوؤ لأجد الحجرة قد وقف ما فيها من هواء،لها ألوان، والجدران تُردِّد حؤجةَ أنفاس تتباعد وتطول، والوقت أبطأ من بطئه حتىلكأن بين الثانية والثانية عام، وقد أمسك بالؤيروسمَّ ر عينيه عؤ زجاجة الدم، والممرضة راحت عيناها تعدو بين الفم الذي أصبح كالجرح،والجرح الذي أصبح كالفم،٥ ساعاتكنا جميعً ا نتحفز ونستعدُّ، وكانتقلوبُنا وسواعدنا وعقولنا متشابكةً متلاحمة تُحاؤ رَجلَنا، وضاقت الحجرة، حتى ما عُ دنا نستطيع التنفس. وتصبَّبْنا مياه اونحن ندفع الهواء إؤ رئتيه، ونخؤق صدره بإبرة طويلة،العقار، ليعلوَ صدره. ونبذل طاقاتِنا كلها،وخفنا أن نصدق، وضم قوانا، ويزداد إيماننا بخداع الحقيقة.وجاءنا من الركن نحيبُ الممرضة المكتوم.واقشعرت أجسادُنا من النحيب، فأصبح كدوي الطبول.ودفع التومرجي أسطوانة الأكسيجين جانبًا،ويبكي، ويقتلع النفوس ببكائه الرجاؤ الخشن ويقول: آه يا حبيبي يا خويا.وأفقت عؤ قول زميؤ، والدموع تغصُّ حلقَ ه: البقية في حياتك. والتي نحسُّ وأننا مضيعون،معها إلا البكاء، فيحملنا البكاءُ إؤ بكاء.وجال بخاطري أن أُعانقَ زميؤ وأضمَّ ما في صدري إؤ ما في صدره، وأُخفيَ ما أحسُّ به من خجل إزاء فشلنا أمام الموت، نتأمل الرجل المسجى، وتحز الخسارة في قلوبنا، وملامحهالتي استاحت في هدوءٍ دائم.

Summarized by © lakhasly.com